التجربة الرومانسية من خلال الطبيعة عند محمد الشبوكي

2005-1916

عز الدين ذويب(*)

ملخص:

تطمح هذه الدراسة إلى الكشف عن الجوانب الخفيّة في شعر شاعر الجرف محمد الشبوكي المتمثّلة في تجربته الرومانسية مع الطبيعة وكيف تفاعل وعيه الكئابي معها حتى جعلها ملجأ له من قسوة الحياة والمعتقلات، وكيف استمد من مظاهرها إلى نفسه صورا خلعها على موصوفاتها وتأملاته الكثيرة معبّرا عما في نفسه بصور الطبيعة المختلفة الوردة/ النجمة، بحيث أصبحت ناطقة بأحاسيسه وهو ناطق بشعورها.

Abstract:

This dissertation intends to highlight shades in the poems inspired by the Alger revolutionary poet Mohamed Chebouki, who known as the poet of the Algerian cause .Chebou poems are characterized by his natu romanticism .In this study we attempt to detai romantic alliance with nature and how poetically interacts with her as if it were so kind of living entity .These calls are made nature to rescue the struggling poet ,and carry ideas to the world. Like one writer stated in romantic anthology :surely not phase or feature the outer world is without it appropri counterpart in the inner world of hum personality .Chebouki shares seve characteristics with William Wordsworth a Keats their respective views to nature and its r in acquiring meaningful insight into the hum condition. Chebouki resembles the revolution Shelley to whom the rough wind wails ,like the p himself, for the world's wrong.

تمهيد:

هنالك بعض الموضوعات في الأدب العربي عموما، وفي الشعر على وجه الخصوص، ظلّت أشبه ما تكون بالعمود الفقري لهذا الأدب نجدها في الشعر الحديث والمعاصر، ومنها على سبيل المثال : الشعر الذّاتي أو الملمح الذّاتي، ومنها الإخوانيات، والنّظرة الرومانسية للأشياء لكن في مثل هذه الخصائص جوهرية في الاحساس البشري وهي عند أكثر الشعراء حضورا. لا غرابة بعد ذلك أن نجد هذه الملامح عند شعرائنا الجزائريين في العصر الحاضر،وها نحن سنحاول اثبات واحد من هذه الملامح عند واحد من شعرائنا المعاصرين الكبار..إنّه الشاعر الثوري محمد الشبوكي-شاعر الجبال والسجون-، أمّا الملمح الرومانسي الذي سنحاول تتبّعه في شعر هذا الشاعر فهو ما تعلّق بالطبيعة لكون الشاعر عاش في منشإ حياته في بيئة

* أستاذ مساعد أ، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تبسة.

ريفيّة وجبليّة قبل أن يحاصره الاستعمار في عهد الثورة بين حيطان السجون، فأصبح شاعرنا يتخيّل الطبيعة والمعارك الجبليّة من وراء القضبان ولكن بحنين رومانسي ، وقبل أن نلج الى نصوص شاعرنا نودّ الوقوف حول مفهوم الرومانسية وأصول ملمح اهتمام شعرائنا في العصور القديمة بالطبيعة.

-1- الرومانسية(romanticism):

استعملت هذه اللفظة حديثا في أدبنا العربي للدلالة على الحركة الادبية التي تعارض الكلاسيكيةclassicism (1) وهي لفظة أوروبية وردت في اشتقاقها اللغوي وتاريخها الزمني عدّة أقوال أهمّها: ليليان .ر.فرست lilian.r.furst فقد قعدت هذه اللفظة من حيث تاريخها الزمني، ورأت أنّ انجلترا أوّل من استخدم هذا المصطلح الذي كان مرتبطا بقصص الخيال القديمة وحكايات الفروسية والمغامرة والحب ، كما رأت أنّ اللفظة استعملت لتفيد معنى زائف ، ومتخيّل ووهمي خلال القرن السابع عشر، ثمّ أصبحت تعنى الخرافي والسخيف وهكذا صارت الكلمة مع انتصاف القرن الثامن عشر تحمل معنى مزدوجا: المعنى الاصلي اي ما يوحي أو يذكر بقصص الرومانس القديمة ،ومعنى تطور ليشير الى اتصالها بالخيال والمشاعر(2) ثم تطورمفهوم الرومانسية إلى" التّغني بجمال الطبيعة والبعد عن مظاهر التعقيد الصناعي والتوتر الحضاري الذي ترتب على المتغيرات الاجتماعية التي أحدثتها الثورة الصناعية "(3)ثمّ أخذت فرنسا في هذه الفترة هذه الكلمة ووضعتها بصيغة فرنسية(رومانتيك)romantique لتدلّ على المشاهد الطبيعية والخيال ،كما أخذت ألمانيا الكلمة الجديدة(رومانتش)في مكان الكلمة الألمانية القديمة(رومانهافت) وصارت تطلق على المشاهد الطبيعية والوحشية(4) أمّا أحمد أمين فيذهب الى أنّromanticism،romantic romance كلّها كلمات مشتقة من العجب والدهشة والجدّة والطرافة والتشويق فهي تحمل معنى الممتاز غير العادي وغير المألوف(5)، رغم ما ذكر من تعريفات سابقة فإنّه يصعب ايجاد تعريف شامل وجامع لهذه اللفظة ومرجع ذلك- في نظري- الى طبيعة هذا الاتجاه الذي اتخذ من العاطفة والذات الفردية نقطة انطلاق له فلا غرابة في تعدد التعريفات واختلافها وغموضها وهنا تصدق العبارة التي تقول: إنّ" الرومانسية تتّخذ من الأشكال بقدر ما فيها من مؤلفين"(6)الأمر الذي دفع النّاقد الألماني فريدريك شليغل(1772-1829)إلى كتابة حوالي مئة وخمسين صفحة في تفسير المصطلح ولم يصل الى تعريف مقنع (7) وعلى الرغم من هذا الاختلاف توجد بعض

التعريفات التي وردت بأقلام أعلامها ونقادها في زمن تطورها في الأدب الغربي والأدب العربي:

فالأديب الألماني نوفالس novalis يقول:"إنّ فنّ الشعر الرومانسي هو فنّ التغريب في أسلوب ممتع ، أي فنّ جعل الشيء يبدو غريبا على الرغم من أنّه مألوف"(8). أمّا الأديب الفرنسي ستندال stiendale "الرومانسية هي ذلك الفنّ الذي يقدّم للنّاس أعمالا أدبية قادرة – في ظل الوضع الرّاهن لعاداتهم وتقاليدهم – على أن تعطيهم متعة لا تدانيها متعة"(9). ويرى الأديب الفرنسي فكتور هوجو وهو من أشهر الرومانسيين في فرنسا ودعاتها أنّ" الرومانسية التي كثيرا ما عرّفت تعريفا خاطئا هي في نهاية المطاف، وها هنا تعريفها الحقيقي إذا ما وضع المرء في الحسبان مظهرها النّضالي فقط التّحرّريّة في الادب ليس غير"(10). أمّا محمّد غنيمي هلال يقول إنّ: الأدب الرومانتيكي:" كان صورة صادقة للاتجاهات الثورية والوطنية ، وقد عبّر عن آمال ذلك المجتمع في أدب فيه الحمّى الفنية والثورة الفكرية، والضيق بالواقع، ونشدان السعادة في عالم الأحلام." في حين يعدها محمد مندور مذهبا رومانتيكيا ويعرّفه بأنّه" مذهب عاطفي يتغنى بآلام الإنسان وأحيانا بمسرّاته، وهو أدب شخصي يهتم بمشاعر الفرد الخاصة ويترنّم بها ، وهو مذهب قليل الاحتفال بمجاراة العقل ، والخضوع لا حكامه ، ولهذا يكثر فيه التّغني بجمال الطبيعة التي يتعزّى بجمالها النّاس عن آلام الحياة"(11)

تظل الرومانسية لفظة منفتحة على كل هذه المعاني علما أنّ كل شاعر اتّخذ لذاته سياقا من طبيعته الخاصة به ومن سيرته ومن نظرته الكلية والشاملة لواقع الحياة والوجود...فكانت نموا مدهشا في الحساسية الخيالية ، اذ أعطت للإنسان ذاته فاهتمت بالشخصية الفردية ، وهكذا فالرومانسية كانت تعمّقا في حياة الإنسان، ونفسه الباطنة ،واستمدّت بذلك منه روائع الوجدان، وهذا ما سنحاول تتبّعه من خلال قطوف شعرية في أدبنا العربي وفي تجربة الشاعر محمد الشبوكي الرومانسية من خلال الطبيعة.

-2- أعلام و قطوف في الشعر العربي :

في مراحل متأخّرة نسبيا خصوصا في العصر العبّاسي، و في الشعر الأندلسي أسبغ الشعراء على بعض عناصر الطبيعة مثل لنهر، والأرض، والروض، والربيع، والورد، والليل، والنجوم شعرية واضحة في شعرهم. من بين ملامحها، استخدام الكآبة، ومفرداتها في تناول هذه العناصر.

أبو تمام واحد من هؤلاء أحبّ الطبيعة حبّا عظيما، لكونه "وجد فيها النبت, والأغصان و الزهر و الألوان المتناغمة، في لوحة مشرقة للعين، و مبهجة للقلب، و مسرحا للخيال"[12] كيف لا و هو من أنسن الطبيعة، و بثّ في صمتها حياة بشرية، ذات أصوات تهمس، و حوار يتناغم.

يقول :

رقّت حواشي الدهر فهي تمرمـــرُ و غدا الثّرى في حَلْيه يتكسّـــر[13]
مطر يذوب الصحو منه و بعده صحو يكاد من الغضارة يمطر[14]
غيثان فالأنـواء غيث ظاهر لك وجهه و الصحو غيث مُضمَر[15]
يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّر[16]
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الرّبا فكأنّما هو مقمر[17]

و قال يصف الربيع فصل الابتهاج و المسرّة و النشوة:

إنّ الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح و ذا جثمان
مصورا في صورة الإنسان لكان بساما من الفتيان
بوركت من وقت و من أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان[18]

و هو أيضا فصل التأمل، للعين و غذاء للروح، و التذوّق الجمالي.

أضحت تصوغ بطونها لظهورها نَوْرا تكاد له القلوب تُنوّرُ[19]

الطبيعة تسقي الأرض بماء الحياة، فيخرج من العروق في باطن الأرض زهرا، أخضر، منوّرا بفرح القلوب فيصبح عندنا ربيعان، واحد في الطبيعة, و آخر في داخل الإنسان.

أما في الشعر الأندلسي فلنأخذ -على سبيل الحصر- ما قاله عبد الرحمان بن معاوية(20) لما رأى نخلة منفردة، فهاجت أشجانه، و تذكّر بلد المشرق :

تبدّت لنا وسط الرصافة(21) نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب و النوى وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي[22]

لقد استغّل الشاعر النخلة فركّب منها صورة متكاملة تقوم في مجملها على وصف حالته النفسية، فغربتها تساوي غربته، وبعدها بعده، إنهما شبيهان في التغرّب و النوى.

وفي الأندلس أيضا نجد الطبيعة تتجلّى بصورة أكثر وضوحا عند ابن خفاجة الذي نشأ بين أحضانها، وتنقّل بين رباها, وخمائلها, و مناظرها الفاتنة، فشبّ وفيه

عشق للطبيعة، يتأمّل جمالها, و يحبّ مناجاتها وقصيدته التي يصف فيها الجبل، تعدّ نموذجا لأدب الطبيعة، الذي أولع به الأندلسيون، و أجادوا القول فيه.

لقد وقف الشاعر ابن خفاجة أمام الجبل وقفة تأمّل، يستنطقه الشكوى، و ينتزع منه العبرة.

وأرعن طمّاح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب
يسدّ مهبّ الريح من كل وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنّه طوال الليالي مفكّر في العواقب[23]

و الجبل يفضي بقصته و همومه للشاعر:

أصخت إليه(و هو أخرس صامت فحدثني ليل السّرى بالعجائب
وقال: إلا كم كنت ملجأ قاتل وموطني أوّاه تبتّل تائب
وكم مرّ بي من مدلج و مؤوّب وقال بظلّي من مطيّ و راكب
ولاطم من نكب الرياح معاطف و زاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطاحت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفْق أيكي غير رجفة أضلع و لا نوح ورقي غير صرخة نادبي
وما غيّض السلوان دمعي و إنما نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتى متى أبقى و يضعن صاحب أودّع منه راحلا غير آيب؟
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع يمدّ إلى نعماك راحة راغب[24]

أضفى الشاعر على الجبل صفات الإنسان، و استنطقه بما يحسّه هو، إنّه ضاق بحياته، و سئم حاله، وتضرّع إلى الله أن يريحه مما يعانيه...

وفي العصر الحديث حاول الرومانسيون أن ينطقوا الطبيعة بأحوالها وهواجسها وأسرارها ونواياها وغاياتها منذ أن طرأت تجربة خليل مطران على الشعر تناولت الطبيعة كمادة للتساؤل وطرح المقابلات والاستنتاجات والمقارنة بين أحوال الإنسان وأحوال الوجود ،والأخطل الصغير الذي عاصره ليس في شعره ذلك التعبد للطبيعة في مظاهرها الخاصة بها وليس لديه التمعّن والتقصّي في هذا المجال، إذ كانت تصرعه مأساة الجمال المقيم والمرتحل وحس النزوح وطيف الموت، غير أن الشاعر القروي اتخذ الطبيعة كمادة للحنين والشابي مادة للمعاناة والتفتح على أسرار الوجود، أما إيليا أبو ماضي جعلها للتفاؤل والإقبال على الحياة مهما كانت قسوتها وشدتها، أما أبو شبكة أحس بالطبيعة الريفية وغامرها بأجمل الغناء في ديوان

الألحان ولم يدع مظهرا من مظاهرها إلا وجعل أوتار نفسه تئن له وتترنم به، وأما عمرو أبو ريشة فقد حفل شعره بالتجارب الوطنية والعاطفية يجيد التنصت لوقع أقدام الزمن على أديم الطبيعة والحياة، ولقد كانت الأمكنة المقفرة والمتهدمة بعد ألفة وطرب وعمران تثير فيه أعمق أحوال الذهول ويترنم من خلالها جمجمة العدم وقبح السيرورة وجنازة الأحياء والأموات، ولإبراهيم ناجي تجربة مع الطبيعة وهي في شعره متصلة بتجربة الحضور والغياب أي بالحياة والموت في نهاية مطافها[25].

لقد أصبحت الطبيعة معشوقة الرومانسي يرى فيها مشاعره فهي مرآته يعكس عليها أشجانه وآلامه ويجد فيها صديقا حميما يبادله مشاعر الحب والإخاء يقول الشاعر خليل مطران:

طفت والصبح طالبا في الجنـان سـلوة مـــن نواصب الأشجان
فنفى حسنها الأسى عن ضميري وجلا ناظري وسرّ جنـاني(26)

ويخاطب الطير متمنّيا أن يعيره جناحيه ليطير بهما في الفضاء الرحب بعيدا عن الهموم والالآم حتى يتخلّص منهما لكونها ملأت صدره.

أعـــر جنـاحيك يا رفيـق أطـر وأمرح خلىّ البال
من ساكب النـور لي رحيق وفسحة الجوّ لى مجال
فإنّ لى يا أليـــف همّـا أفـر منه مبرحا
كتمته خوفا أن يلمّـا به عزول فيفرحا(27)

كما تفاعلت أيضا الطبيعة في العصر الحديث خاصة كأوضح ما تكون عند المهجريّين، فكانت إحساسا ممتزجا بالنفس متصلا بالوجدان، فتصبح جسرا يصل بين ما في أغوار نفوسهم من حسن إنساني، و نزعة متأملة وصور عاكسة لشعورهم النفسي كما في هذه الابيات.

لما أطـلّ الخريـف أدركـت إخـفـاقى
قلت قـول الأسيـف سبـحانـه الباقـى
و في فـؤادي الضعيـف أعـددت أشـواقي
إلى النسيـم اللـطيـف والجدول البـاقـى(28)

وعن الليل يقول جبران :

سكـن الليل و في ثوب السكون تختئ الأحـلام
و ســـعى البـــدر و للبدر عـيون ترصـد الأيـام
فتـعالي يا ابـنة الحقـل نزور كرمـــة العشّـاق
علّنا نطـــفى بذيّاك العصير حـرقة الأشـــواق[29]

بعد أن كان وصف الطبيعة يصوّر ظواهر الأشياء، و يكتفي برسم مشاهدها الخارجية أصبح تعبيرا عن الذّات, و خلجات النفس، و موقف الشاعر من الأشياء، و قد تجلّت هذه النزعة حتى عند الشاعر محمد الشبوكي باعتباره حلقة مشدودة العرى من حلقات الشعر العربي الإنساني بمختلف ألوانه, و تقاسيمه, و اتجاهاته....تلك نظرات موجزة أردناها فواتح لموضوعنا وهو تجلّيات الرومانسية في الطبيعة عند محمد الشبوكي.

-3-الطبيعة في شعر محمد الشبوكي:

يعدّ محمد الشبوكي من رجال الحركة الوطنية الجزائرية ومن المنتمين الى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشرفاء، العاملين بصمت المجاهدين والثائرين الذين اتخذوا الكلمة سلاحا لمقاومة الاستعمار، شهد له معاصروه بالزهد والقناعة، عرف الغربة منذ طفولته، قدس العلم فطلبه مع الوعي الحركي في إطار النضال الوطني لا يهدأ ولا يستقر يستقبله معتقل ليحتضنه آخر فالجرف بالمسيلة 1956، والضاية (بوسوي) 1957-1958، وسان لو بطيوة وهران 1959، ولودي المدية 1960، وبول كزال عين وسارة 1961-1962، ولم تزده المعتقلات إلا إيمانا وإصرارا وثباتا على موقفه الثوري وتعلقه أكثر بوطنه، شهد له القريب والبعيد بمواقفه الشجاعة، اختزل حياته في نصرة الثالوث المقدس (الدين، اللغة، الوطن) تعلق بوطن اسمه الجزائر وبأم مقدسة هي الثورة التحريرية الكبرى وبقائد أمثل جبهة التحرير الوطني.

أمّا تجربته الشعرية فقد رافق الثورة بشعره من وراء المعتقلات والسجون ، سجل أحداثها وصور مآسيها وحربها ومجد بطولات أبنائها فكانت الجزائر المحور والجوهر ومصدر النظم والإبداع، لذلك كان الحب الوطني موقفا ساميا وأحد الأعمدة الرخامية التي ارتكز عليها أدبه، فعشق الجزائر وجعلها قرينة نضاله، فتجلت مضامينه وموضوعاته الشعرية ورؤاه حافلة بمعان سامية من النضال السياسي المرير الذي عاشه مع الأحرار مقاوما الاستعمار، محاورا الواقع ومتفاعلا مع حوادثه،

وواعيا مداره التاريخي والوطني، وظل كذلك وجها مشرقا للمثقف العربي عامّة والجزائري (التّبسّي) خاصة الملتزم بقضايا أمّته ووطنه وشعبه.

لقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون عبر امتداد الإبداع الإنساني، و تعاطفوا معها عطف الخليل لخليله، وتناجوا و إيّاها مناجاة العاشق لمعشوقه، كما اطمأنّوا لظلّها، و لحسن جمالها، و ما توحي به من أفكار تنعش خيالهم, و حسّهم، لذلك تعدّ معبد الرومانسيين وموئل الفنّ، والخير، والجمال، وملاذا لمشاعرهم المرهفة، فتبوّأت عندهم صدارة مفعمة بالحنين والعاطفة لا تدانيها مكانة أخرى في إطار الوصف أو التّأمّل والحلول والفناء ومن هنا كان " ارتباط الانسان ارتباطا وثيقا بالطبيعة الرّؤوم التي تواسيه في لحظات الأسى والفرح والتّأمّل وتعكس مباهجها على ذوي المشاعر المرهفة ولا سيما في الأدب الحديث لقد اتّجه اتجاها عاما الى ما للطبيعة من وجود معنوي يلذّ للخيال الجولان فيه ويروق للفكر أن يسمو به"(30)...فليست الرومانسية وقفا على أمّة بعينها فهي تمثّل الجمال الفكري، والرّوحي، والنفسي ،والطبيعي ،والنّضالي، على صعيد الأزمنة المختلفة ذلك أنّ الاتجاه الرومانسي يعمل على استبطان(introspective)الكمال الجمالي والفني والإنساني من باطن الذات المبدعة، واخراجه الى مستوى الجمال والكمال الإبداعيين، لذلك قليلون من استطاعوا الوصول الى هذا العمق الرومانسي في فهم الظواهر والأشياء، وفهموا الرومانسية على أنّها حبّ وغراميات وأحلام وردية وهروب فقط من الواقع وتشاؤم وانطواء على الذات ، أي فهموا الوجه السلبي لها الذي يكاد يخلوا منه الشعر العربي الحديث عامّة والشعر الجزائري خاصة الذي عرف الوجه الايجابي للرومانسية غالبا وهو ما يعرف بالرومانسية الثورية التي تنظر الى المستقبل وتمنح أملا للمكبوتين والمضطهدين من خلال ايقاع رومانسي متناغم بارقة غده السعادة والتغيير ورفع الظلم وتحقيق الحرية والمساواة.

-أ- الطبيعة رمز موضوعي في شعر محمد الشبوكي :

بعد أن تحوّلت الطبيعة الى شخوص حين بثّ فيها شعراء الرومانسية روح الحياة ونبضها وعكسوا على صفحتها وحي خواطرهم وجعلوها ملاذا لهروبهم نراهم اتّخذوا من عناصرها وصورها معادلا موضوعيا لقضايا مهمّة في حياتهم ، وهذا المعادل الموضوعي كما يعتبره طه وادي" هو المستوى الثالث لدلالة النّص تبدو فيه التجربة الأدبية رمزا لحقيقته أو معادلا موضوعيا لفكرة يعجز الشاعر عن التعبير عنها مباشرة فيجنح الى الرمز بشرط أن يحمل نصّه تعبيرا يساعد على رمزية التّفسير"(31)

فحين استأنس الشاعر محمد الشّبوكي الى بعض الكائنات في الطبيعة مثل الطير ،الزهر، الورد، البلبل.. حاورها وشاركها تغريدها وتفتّحها واتّسعت دائرة تجاوبه العاطفي بينه وبينها الى درجة أنّه جعلها رموزا لمعاني الألم ،والأمل والمعاناة والقهر..إنّ الشاعر بهذه المشاركة يلتقي مع قول القائل : "إنّ الأدب قلب نابض وإحساس مرهف يهتزّ لطلب السّائل وأنين الوجيع واستغاثة الملهوف وزقزقة الطائر وخرخرة الساقية وهينمة النسيم وحفيف الأغصان ورفرفة الفراش وهدير الموج ومن هنا نرى أنّ الأدب عندهم ليس مشاركة وجدانية لبني الانسان فحسب ولكنه مشاركة أيضا لمظاهر الطبيعة المختلفة"(32).

كيف جعل الشاعر محمد الشبوكي من الطبيعة كائنات حية يتعامل معها ويخلو اليها ويسقط عليها مشاعره وأحزانه وكيف يرى فيها النجاة من واقع السجن المرير؟

- الشاعر/الوردة-:

يعتبر المعادل الموضوعي (objective corrélatives) أساسا لنظرية ت.س.إليوت (T.S.ELIOT) النقدية حيث كتب سنة 1919: "الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال في شكل فني تنحصر في إيجاد معادل موضوعي، و بكلمات أخرى : مجموعة من الموضوعات و الأوضاع و سلسلة من الحوادث تكون معادلة لذلك الانفعال الخاص، حتى إذا ما أعطيت الوقائع الخارجية التي ينبغي أن تنتهي بتجربة حسية استعيد الانفعال نفسه حالا...و أن الحتمية الفنية تكمن في هذه المقدرة التامة للعنصر الخارجي على التعبير عن الانفعال"(33).

فهو إذا مجموعة من المثيرات الخارجية التي يعبّر بها الشاعر عن انفعاله, وحالته النفسية وشرطها أن تثير في قارئ العمل الأدبي تجربة حسية, تتضمن الانفعال نفسه الذي انبثقت عنه.

ففكرة المعادل الموضوعي من أهم أفكار النقد الحديث "فهي تهدف أساسا إلى إعادة بناء واقع جديد اعتمادا على معطيات ثقافية محدّدة كبديل للواقع القائم بالفعل"(34).

تضيف ثناء أنس الوجود قائلة: "ذلك أن الفن ليس مجرد إحساس بصري نتلقّاه، أو صورة فوتوغرافية للطبيعة مهما بلغت درجة إتقانها، ولكنه إبداع روحي، و ما الطبيعة سوى ذريعة نتوسّل بها في هذا الخلق"(35).

فتوظيف الطبيعة أساس للعمل الإبداعي، فالطريقة الوحيدة المجدية لإثارة الشعور الإنساني على حقيقته قصد تجليته، هي استدعاء الصور المرتبطة طبيعيا بهذا الشعور.

اعتاد الشاعر السجين محمد الشبوكي أن يمتّع نظره بوردة تفتّحت، يرى فيها بريق أمله، في روضة بسيطة داخل معتقل (بوسوي)، فلما ذبلت ناجاها و حاورها، كاشفا عمق المأساة، التي تطال حتى الورود جرّاء تعسّف السجّان للأحرار، فالورود تحزن،وتتألم، لبلابل الحرية. يقول: [الخفيف]

وردة الدوح ما لعطرك لا ينـ ـفح كالأمس في الفضاء شذيّا
و محيّاك ماله اليوم أضحـى في ذبـول و كان غضّا طريّا
أي شيء دهاك في ميعة العـمـ ـر فأذوى جمالك العبقـريّا
عجبا للزمان حتى زهور الـرو ض يفني بهائـها الورديّا
هكـذا قلت للحزينة في الأيـ ـك فقالت فأرّقـت جفنيّا[36]

وأفصحت الوردة عن سرّ ذبولها.

كان لي بلبـل وفيّ يصافيـ ـني و يشـدو صباحه والعشيّا
يبعث الصوت في الخميل حواليّا فيـغدو مع الزهور نديّا
فإذا الصوت لم يعد لهف نفسـى في معـاني الحـمى يرنّ فتيا
ها أنا ذي أعيش في غمرة الوحـ ـشة عيشا رضيته لي شقيّا
لم تطب بعـد بلبلي لي حياة و تدجّى الوجـود في عـينيّا
فتدثرت بالحـداد و فارقـ ـت عبيري و راحي الكوثريّا[37]

نجد التوحّد بين الذات الشاعرة، وبين الوردة الحزينة، إنهما صنوان، شبيهان في عدم الأنس والانسجام، فالمعتقل يحيل إلى الفناء، و الذبول "لذلك تحفل القصيدة بفلذة وجدانية، حيث عبّرت الوردة عمّا ألّم بها، على لسان حال الشاعر فيكون هو الذّات، والموضوع في آن معا"[38]. فالوردة التي كان يشجيها الشاعر بنغمه، و تلاحينه الوطنية، ذبلت، فمصدر حياتها وارتوائها، وتفتحها استسلم للسجّان. لقد تغير حاله، والليالي بحالها، ولم يعد صوتا مشجيا مخلصا في ودّه. إنّه ضرب من الاحتجاج على واقعه، وحياته كلها، لأن موقعه خارج أسوار المعتقل، في مغاني الشرف، والإباء. فما قيمة إذًا الإنشاد إذا فقد الشاعر سعادته، وحريته ؟.

ويهتم الشاعر للوردة التي تدثّرت بالحداد، وفارقت عبيرها، وراحها الكوثرية فيسهد لسهادها و يكشف عن حقيقتها، بل عن حقيقته.

يا نسيم الربيـــع لا تشرب اليـــو ... م دموعي و لا تهيـــنم عليّا
و لتدعني بين الخميـــل أناجـــي ... وحدتي يلهب الظـــما شفـتيّا
قد وجدت الكون بلـــسم أدوا ... ئي و ضمخت بالجوى عطفيّا
و مللت اللحون في جلوة الفجـ ... ـروأضحى يؤذي الندى خديّا
و النسيـــــم العليل أمسى يعنيـت ... نـــي و يوهـــي بثقلـــه كتـفيّا
في محاريب عزلتي أكـرع الصفو ... و أجني سحر الوجود شـــهيّا
أنشد الأنس في الدجـى و أناغي ... ذكريات كأنا الشبـاب الرضيّا
أسكتي يا طيور لحنـــــك للغيـــر ... و لا ترسـليه عـــذبـا أليّا
فأنا اليوم أستطيب من الألحـان ... ما كـان في صـــداه شـجيّا
في تراجيعه أنيـــن مـن الكـــو ... ن يشـاكي عنـاءه الأبـــديّا[39]

الشاعر محمد الشبوكي من الذين غيّبهم السجن، فهبط من مكانته الرفيعة، مركزا سياسيا و علميا, و أدبيا، و دينيا، إلى مكان لا يليق بأمثاله. في "الوردة الحزينة" قد عبّر عن وحدته القاتلة وغربته الموحشة، والظلام الذي تدثّره ليال طوالا، لذلك أصبح مستأنسا بالحزن، الذي يلفّ تقاسيم نفسه، الشاكية، الباكية من عنائها الأبدي.

لم تكن الوردة في هذا سوى معادل موضوعي لواقع مؤلم عاشه الشاعر في المعتقل، فالحياة فيه يجلّلها السواد، وعليه "فالشعر صدى القلوب، أو كما قال أبو تمام: الشعر صوت العقول"[40]. ونحن نقول الشعر: صوت النفوس، التي تعاني، ولا تبالي بمعاناتها، لأنها تحمل قضية جلّ أن تسمى.

-الشاعر و النجمة -:

للشاعر محمد الشبوكي معاناة أخرى مع مشاهد الطبيعة، وهذه المرة مع رمز آخر وهو النجمة التي تكررت في ديوانه الشعري في قصائد :

نجمتي [ص152] نجمة القافلة [ص153] النجمة الغائبة [ص154]

وتكرارها في سياق متنه الشعري يؤشّر على دلالات لا بد من كشف حجبها، والقفز على حواجز معانيها.

1 النجمة الملهمة:

النجمة ملهمة الشاعر، ومصدر انبعاثه، من لظى يأسه، وتشتّته، وضياعه، في وادي مسرى السّراب (بوسوي) فبإشراقها تشرق أحلامه، و تتنوّر آفاق أيّامه، ويعود البلبل لإنشاده متلهّفا لغد الأماني، فرؤياها طرب، وفيض شعري، وزوال "للشاعر الوردة"، و للهمّ، والأسى وإحياء، وحضور للشاعر الإنسان. وهو في تطلعه إليها يفرّ من نفسه السجينة، يجد في ضيائها، وجمالها، ورفعتها ما يفتقده في حياته الباطنية، الحافلة بالصراع والتمزّق، فيعانقها رغم البعد والمسافات، والضعف والانهيارات، لكنها تبقى شدوه وأمله وبريق وجوده. فيا لَروعة مرآها وهي حافلة في محرابها القدسي السّامي! فحين تتجلّى تنعشه، تكسبه عظمة الملوك، وكل من في الكون جميعهم له خدم.

يقول في قصيدة "نجمتي" [البسيط]

أشرقت لمّاعة في أفــق أحــلامـى ... يا نجمة نوّرت آفـاق أيّامــى
لما رأيتك فاضت مهجتى طربـا ... و فارقتنى تبـاريحى و آلامـى
أرنو إليـك و قلبى ملــؤه شغف ... بحسنك الفذّ يا ينبوع إلهامى
ألهمتنى الشعر فانسـاقت خرائده ... فصغتها من صبابـاتى و تهيامى
أبيت ليلى أناجيـك على حــرق ... ورسمك الباهر المحبوب قـدّامى
جمالك الغضّ أغرانى فجدّد لي ... عهد الشبيبة مـن أيـام أعـوامي
يا نجمتى أنت أنسى أنت تسليتى ... أنت الدواء لأدوائي و أسقامي
إذا تخطرّت في مسراك مائسـة ... حسبت أن الورى و الدهر خدّامي
بيـنى و بينك أبعـاد معـوقـة ... لكنـما أنت أوتـاري و أنـغـامـى
ما كان أروع مرآك إذا نظـرت ... إليك عيناي في محرابك السّـامى[41]

2- الشاعر/النجمة :

للشاعر محمد الشبوكي ملاذ فسيح حين تختنق روحه الإنسانية، تحت لظى قمع السجّان. هو الطبيعة بكل ما فيها من مناظر، ممتعة، ومؤلمة، والتأمل فيها أو الرجعة إليها يمكن أن تعدّ نظير التّوق للعالم المثالي، للحلم الآتي، فكلاهما ينتزع الشاعر من الحاضر البغيض المؤلم، إلى عالم مغلّف بجنان الأمان.

وهو في تطلعه يفرّ من نفسه السجينة إلى النجمة فيجد في صفائها، و جمالها، وضيائها ما يفتقده في حياته الباطنية، الحافلة بالصراع، و يتخذّ من بعض مشاهدها، وعناصرها "معادلا" للذات، واغترابها للحرية، والانطلاق.

كتب في أوائل 1958 قصيدة "نجمة القافلة" ودواعي نظمها يقول الشاعر: "يتربع معتقل (بوسوي) فوق هضبة مكسوة بالأشجار، وكانت هناك مجموعة من الأشجار تبدو منتظمة متتابعة في شكلها تمثّل قاطرة من الإبل متجهة نحو الجنوب، وتشرف عليها في الأفق نجمة عند الفجر فتأثّر الشاعر لهذا المنظر الخلاّب"[42].
[المتقارب]

تراءيت في الأفق لي حافلة ... بنـــورك يـا نجمة القافــله
فهل أنت للقلب ثغر الأماني ... تبســّم في عزلتي القاحله
أراك فترقص لي الذكريـات ... و تمثــل في حــفلها رافـله
أراك فيحلو لقلبي النشيــد ... و تصبح نــفسي له ناهله[43]

تبقى النجمة راعية، حارسة بضيائها "القافلة"، فضياؤها تجدّد للنفس، وتجديد للأماني ، وانعتاق من ربقة عبودية المعتقل، ووحدته الموحشة، و بما يلقي على الشاعر من شقاء، وحرمان وعذاب، ويأس، وذبول. وميض نجمة "القافلة" إشعاع و توهّج للنفس، و بعث، و إحياء للشاعر من رقاده إلى الترنّم بحلو النشيد.

وها هي نفس الشاعر تهتزّ حرة طليقة و هي تتأمّل النجمة تجوب الآفاق الواسعات و تحيي "قافلة الخلود" محافظة على عهد التواصل, والرعاية بينهما.

تجوبين آفاقــك الواســعـا ... ت بين الكواكب كالذّاهـله
تحيّين في الفجر (قافتلة الـ ... خلود) و تحــدينها قائـتله:
ألا قدمـا فلتسيري فان الــ ... حيـاة مــواكبــها راحلــه
تطلين في كل صبح لتلقى ... تحــيّة حبّ على القافــله
فيا لك من نجمة لا تــرى ... نكيثة عــهد و لا حائله[44]

يرى الشاعر الأشجار المنتظمة المتتابعة كرؤيته لرفقائه في المعتقل، تحدوهم الوحدة، والتماسك، والهدف النبيل نحو رحلة جميلها عذاب...رحلة نحو الحرية.

قافلة الأشجار هي قافلة الأحرار المقموعين في المعتقل، و النجمة هي الشاعر باعتباره دليل رفقائه، وراعيهم، وموجّههم، وحارسهم. "نجد أن كتابة الطبيعة تصبح ردا على سؤال الشاعر ونظيرا لكتابته، حتى أن الشاعر يطور موضوعه "رعي النجوم" المرتبطة تقليديا بالهم الكوني, إلى رمزية حديثة للنجوم تقوم على الحوار والمسامرة، والمناقشة، و هنا تصبح الطبيعة نفسها إحدى مفردات الثقافة، و يتطلّع الشاعر إلى أن يكون نجما في المجتمع"[45].

هذا سرّ اتخاذه من بعض مشاهد الطبيعة و إحيائها رموزا واضحة لحالات نفسية من حديثه عن النجمة التي تهتم لما يعانيه أحرار الوطن، و الحرية في آمالهم، وآلامهم. من خلال هذه المزاوجة ابتدع محمد الشبوكي صورا عصرية جديدة.

وذات صباح تفقّد الشاعر نجمته فلم يجدها في مكانها فتألّم لذلك وكتب يقول : [الخفيف]

غبت يا نجمتي فغابت عن الفجـ ـر بشاشاته و غاض جماله
وعرى موكب الخلود التياع نم عنه انزعاجه و انذهاله
وبكى الشعر حسرة و توارى خلف وادي السراب حزنا خياله
و الشحارير ملت اللحن و التـ ـغريد و الروض أوحشته ظلاله
كنت كالحق باسما يملأ النفـ ـس حبورا بهاؤه و كماله
كنت كالعابد المنيب تصدّى لدعاء الاله جلّ جلاله
كنت حقا عروسة الصبح يبدو في مرائيك زهوه و اختياله[46]

فالفجر لا يكتمل جماله و بشاشته إلا إذا لاح نور النجمة.

أفولها حزن، و التياع لكل من هم في المعتقل (موكب الخلود) حتى الشعر تتحوّل كلماته ونبراته إلى بكاء، وحسرة، وأنين، و تأوّه خلف وادي السراب كيف لا وهي كالحق تملأ النفس حبورا، و بهجة، وكمالا، وكالعابد المنيب إلى خالقه، يرجو عبر دعائه رحمة ربّه، وهي عروسة الصبح, يتجلّى في ضيائها زهوه، وكبرياءه وخيلاءه.

ثم يتساءل الشاعر في حيرة, وتردّد عن سرّ اختفاء نجمته مصدر أنسه، وألفه، و بريق أمله. يقول:

أين يا نجمتي اختفى ذلك النـ ـور و أين انتحى و كيف مآله ؟
أنت أنشودة لعهد من الأنـ ـس أذاب الفؤاد و جدا زواله
قد تواريت بغتة عن أسير في مجاليك تزدهي آماله
ليت شعري يا نجمتي أي أفق راقك اليوم للشروق مجاله
هل تعودين نجمتي لأليف ليس تنسيه ألفه أغلاله ؟[47]

باختفائها قد اختلّ نظام الكون و هو ما يحيلنا على نفسية الشاعر القلقة، المضطربة ورغم ذلك فظهورها أو أفولها لا ينسي الشاعر عبوديته، وذلّه، وانكساره. تلك معاناته الأزلية في مسرى وادي السراب (بوسوي).

قصيدة "النجمة الغائبة" هي وغيرها "نجمتي-نجمة القافلة" تصوّر معادلا موضوعيا لجانب من الحياة الإنسانية داخل المعتقلات.

لم نر الشاعر يبوح أو يقدّم ترجمة لما حدث في الواقع على الرغم من أنّ القصيدة تنبثق من الواقع، إلاّ أنّه لم يقدّمه كما هو، و إنما قدّم معادلا موضوعيا له.

فالقصيدة مركّب جديد حاول فيه خلق علاقة حميمية بينه, و بين النجمة. قد حدث منها ضياء فتجدّد، وجدّد أمله في الحياة، والحرية، والانطلاق. وقد أفلت نخفق صوته، و التاع.

والحقيقة أنّ المعادل الموضوعي كشف عن جمالية في الأداء الفني, التعبيري عند الشاعر محمد الشبوكي، إذ شكّل لنا صورا رائعة عن حقيقة النفس السجينة, المتأزّمة، التي تعيش صراعا حادّا، تعيش بين مدّ الأمل، و جزر اليأس، بين التشاؤم, و التفاؤل، بين الترقّب، والتطلّع، لذلك يصرّ (اليوت) على أنّ المعادل الموضوعي "هو الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال بشكل فني بحيث ينتفي وجود الفن إذا لم يتوافر المعادل الموضوعي"[48].

هذا عن الطبيعة المشرقة, و الحزينة، و هي طبيعة كشفت عن عمق قرار الشاعر محمد الشبوكي الذي توسّم في الطبيعة كائنا يفيض بالحياة والمشاركة الوجدانية، وكأنها بشر يحزن ويبتهج يثور ويخمد وفق الظروف النفسية التي تعتوره... بهذه الروح التجأ إليها باثا شكواه محاورا، ومتسائلا، راضيا تارة وساخطا تارة أخرى .

الهوامش:

(1) Classism عني بها المذهب الذي يدرس أدب القدماء(اليونان،الرومان) والذي يتشيع ويتعصب له.
(2) ليليان.ر.فروست، موسوعة المصطلح النقدي، (الرومانسية)،تر:عبد الواحد لؤلؤة،ط3، المؤسسة العربية، بيروت، 1983، ص 177.
(3) نبيل راغب.موسوعة النظرية الادبية،ط1،دار لوبار للطباعة، القاهرة، 2003، ص213.
(4) ليليان ر.فرست،موسوعة المصطلح النقدي(الرومانسية)،ص178.
(5) أحمد أمين. النقد الادبي ط4،دار الكتابالعربي،بيروت،1976،ص330.

(6)بول فانتيغم .الرومانسية في الادب الاوروبي،تر:صباح الجهيم،دط، وزارة الثقافة،دمشق،1981،ص12.
(7)أنظر ليليان .ر.فرست.الرومانسية(موسوعة المصطلح النقدي)،ص69.
(8)ليليان .ر.فرست.الرومانسية الاوروبية بأقلام أعلامها،ص15.
(9)المصدر نفسه،ص35.
(10)المصدر نفسه،ص36.
(11)محمد مندور.في الادب والنقد،دط،دار النهضة ،مصر،127،1978.
(12) حسن حسين الحاج. أعلام في العصر العباسي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1985، ص115.
(13) تتمرمر : تموج و تضطرب لينا و نعمة.
(14) لأنه عقيب المطر يكون أشد زرقة.
(15) الصحو بعد المطر غيث مضمر لا يرى. لأنه لا يمطر، و غيث آخر مطر بالأنواء شاهده الناس.
(16) نادى على الطريقة التقليدية بصيغة المثنى، لنرى وجوه الأرض المصورة بألوان الزهر.
(17) يقول : خالط بياض الزهر و الأنوار بياض النهار و غلب ضوء الشمس فيه فكأنما هو مقمر لا مشمس!
(18) حسن حسين الحاج. أعلام في العصر العباسي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1985، ص117.
(19) حسن حسين الحاج. أعلام في العصر العباسي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1985، ص116.
(20) عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان يلقب بصقر قريش.(113ه-172ه).
(21) مدينة أنشأها عبد الرحمان الداخل بالغرب من مدينة قرطبة وأقام فيها البساتين.
(22)أبو الخير عمر. محاضرات في الأدب الأندلسي، جامعة عنابة 1983.
(23) المصدر السابق.
(24) أبو الخير عمر.محاضرات في الأدب الأندلسي، جامعة عنابة، 1983.
(25)سعيد أحمد.خليل مطران،ط1،دار الامل،لبنان،2004 ،ص156.
(26)المرجع نفسه،ص202.
(27) انظر إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت، ط03، 1998، ص 165-172.
(28) شوكت محمود حامد.مقومات الشعر العربي الحديث و المعاصر (بحث تاريخي و تحليلي مقارن)، ط1،دار الفكر العربي،1975، ص209.
(29)أنيس المقدسي.الاتجاهات الادبية الحديث،ط8،دار العلم للملايين، بيروت،1988،ص35
(30)طه وادي.شعر ناجي الموقف والاداة،ط3،دار المعارف ،مصر،1990،ص60
(31)مصطفى هدارة.التجديد في شعر المهجر،ط1،دار الفكر العربي،1957،ص113
(32) شوكت محمود حامد. مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر ،ص211.
(33) الخطيب حسام. محاضرات في تطور الأدب الأوروبي و نشأة مذاهبه و اتجاهاته النقدية، ط1،مطبعة طربين، دمشق (سوريا)، 1985،ص463.

(34) أنس الوجود ثناء.دراسات تحليلية في الشعر القديم، ط1، دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص117.
(35) المصدر نفسه. ص 117.
(36) الشبوكي محمد.ديوان الشيخ الشبوكي، ص155.
(37) المصدر نفسه. ص 155.
(38) الحاوي إيليا.في النقد و الأدب، ج3،ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ص 287.
(39) الشبوكي محمد.ديوان الشيخ الشبوكي، ص155-156.ل
(40) طمّار محمد. مع شعراء المدرسة الحرة بالجزائر، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005،ص301.
(41) الشبوكي محمد.ديوان الشيخ الشبوكي، ص 152.
(42) المصدر نفسه. ص 153.
(43) المصدر نفسه. ص 153.
(44) الشبوكي محمد.ديوان الشيخ الشبوكي، ص 154.
(45) عز الدين حسن البنا. الشعرية و الثقافة مفهوم الوعي الكتابي و ملامحه في الشعر العربي القديم، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان) 2003، ص 186.
(46) الشبوكي محمد.ديوان الشيخ الشبوكي، ص 154.
(47) المصدر نفسه. ص 154.
(48) الخطيب حسام. محاضرات في تطور الأدب الأوروبي و نشأة مذاهبه و اتجاهاته النقدية، ط1، مطبعة طرابين، 1974-1975، ص 474.